

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشي

ويقول آخر في هذا الموضوع : (١)

لَوْلَا بُنْيَاتُ كَرْعَبِ الْقَطَا رُدِّدْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مَضْطَرَبٌ وَاسِعٌ
فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَأِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَبْنَتَانِ أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمَضِ (٢)

الحب والبغض Adi et Amo هاتان الكلمتان هما جامع
الآداب البدوية ؛ لأنه إذا كان العربي - كما رأينا - صديقاً حميماً
لخلاته ، فإنه عدو لدود لا يهدأ له بال إذا عادى ؛ تضطرم نفسه
وتتأجج بنيران الحقد والبغضاء ، وكانوا يعدون من لا يرد
اللظمة التي أصابته جباناً ، ويستحيل على الرجل الكريم المحدث
منهم أن ينسى ضرراً لحقه حتى يثار لنفسه وينتقم لها ، وأنشد
بعض الأعراب ، - وقد آلمه أن يغتصب المغير إبله - أياًناً
يقول فيها عن عشيرته التي لم تساعده في استرجاعها :

لَكِنْ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدُوٍّ
لِنَسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً

ومن إساءة أهل السوء إحساناً (٣)
والبيت الثاني الذي قد يسرف في مدح من يتصف به الأخلاقيون
المسيحيون والمسلمون الحق بمن قيل فيهم عاراً لا تمحى آثاره ، وإن
المنهج السيئ في معاملة الأعداء ليتضح على أتمه من الآيات التالية :
إذا المرء أولئك الهمان فأوليه

هواناً وإن كانت قرياً أو أصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه
قدرة إلى اليوم الذي أنت قادره

فالآن نمت فلا هم يؤرقني بهذا التبور إذا ما أودت الحرم
للموت عدى أباد لتأنكرها أحب سرورا وبى عما أن لم
(المترجم)

(١) هو حطان بن المثل (المترجم)

(٢) Charles Lyall : Anc. Arabian Poetry, P. 28.

والحلمة ص ١٢٧

(٣) الحلمة ص ٧

وقد وضع الاسلام حداً لهذه الوحشية واستهجنها القرآن
ونها عنها في قوله (١) (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ كُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) وربما كانت
الآيات التالية تفصح عن هذا تمام الإفصاح ، وفيها نرى صراعا
عنيفاً بين رجل وبين الفاقة ، ويحمد الله أن كان مصرع ابنته قبل
مصرعه حتى لا تكون تحت رحمة أقاربها (٢) :

لَوْلَا أُمَيَّةٌ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدَمِ
وَلَمْ أَقْلَسِ الدُّجَى فِي حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْغَيْشِ مَغْرَفَتِي
ذُنَّ الْيَتِيمَةِ يَجْفُوهَا ذَوُو الرَّحِمِ
أَحَازِرُ الْفَقْرَ يَوْمًا أَنْ يُبْلَمَ بِهَا
فَيَهْتِكُ السُّتْرَ عَنْ لَحْمٍ عَلَى وَضْمٍ
يَهْوِي حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَغَفًا
وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ
أَخْشَى فِظَاطَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءِ أُخٍ
وَكُنْتُ أُبْنِي عَلَيْهَا مَنْ أَدَّى الْكَلِمَ (٣)

(١) الاسراء (٢١: ١٧) وقد ورد في القرآن الكريم في موضع آخر (التكوير ٨ - ٩)
يوم الموقف والسؤال (وإذا المودعة شلت بآى ذنب قتلت)

(٢) الحلمة ١٢٠ . وبالرغم من أن هذه الآيات لم تنظم في الجاهلية وإنما ترجع
إلى عصر متأخر في الاسلام إلا أنها تمثل هذه الغزعة الوثنية تمام التمثيل وقد عاش
ناظمها اسحق بن خلف أيام الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٤٣ م) وقد تبنى بنت أخته
إذ ماتت ابنته . وراجع كذلك الكامل للبرد ص ٧١٥ ، وقد ترجم المخطوطين سير
شارلز ليل في كتابه Anc. Ar. Poetry, P. 26

(٣) ذكر البرد قصيدة في هذا المنى وهي التي أشار إليها نيكلسون وترجمها ليل :

أست أنيمة مضروباً بها الرحيم لتي صجد عليها الترب مرتك
يا شقة النفس أن النفس واللة حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أختى عليها أن تفتنى إلى الحمام فيلقى وجهها الدم

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة

وصممت إذا أيقنت أنك عاقرة^(١)

وفوق كل هذا فإن الدم يدعو الدم ، وهذا الارغام يظل يلاحق ضمير العربي الوثني ؛ وكان الانتقام عندهم ضرورة طبيعية إذا لم تحب حرمتهم النوم والشبهة والصحة ، كما كان ظمأ محرماً لا يطفى أواره أو يبل لهيبه سوى الدم ، ومرضاً من أمراض الشرف يمكن تسميته بالجنون ، وإن كان قليلاً ما يمنع الرجل من أداء عمله في هدوء وتبصر . وكانوا يثأرون من القاتل إن أمكن أو أحد أقاربه وأبناء عشيرته . وإذا كان تستقر الأمور في نصابها ويندمل الجرح ، إلا أن هناك حالات كان الانتقام فيها فاتحة قتال دموي دائم . تشتبك فيه القبيلة بأجمعها صغيرها وكبيرها ، كما حدث ذلك في مقتل كليب الذي أدى إلى حرب زبون ظلت الرماح فيها مشجرة زهاء أربعين عاماً بين قبيلتي بكر وتغلب ، ويقبل أقرب أقرباء القاتل الدية كفدية له وتدفع عادة جمالا وهي تعد مسكوكات الاقليم ، وإن قبولهم ذلك ليوحى إليهم دائماً أنهم فضّلوا اللين (النفاق) وآثروه على الدم^(٢) ، وإن الشعور العربي الحق ليشرئب من خلال هذا البيت الذي يقول فيه الشاعر :

سأغسل عني العار بالسيف جالياً على قضاء الله ما كان جالياً^(٣)
وكانوا يعتقدون أن روح القاتل تظل شاخصة على قبره وتسمى الهامة ، أو الصدى ، وتصيح : واسقوني ، اسقوني ، حتى يؤخذ لها الثأر من اعتدى على صاحبها ، ولكن الافكار الوثنية عن الانتقام كانت مرتبطة بالماضي أكثر من ارتباطها بالمستقبل ولم يكونوا يحسبون للحياة الأخرى قيمة كبرى أو لم يكونوا يعلقون عليها أية أهمية بجانب الذكريات المتأصلة عن الحب الأبوي ، والشفقة البنوية وأخوة السلاح .

ومع أن النفس تستهجن هذه الطريقة المتبعة في الانتقام والاختذ بالثأر إلا أن مغبتها إيجابية في صد أولئك العابثين الذين لولا تلك الخطوة — لأطلقوا لغرائهم الجريمة العنان ، ولم يكبحوا لها جماحاً ، إذ لا يخشون إذ ذاك رادعاً أو إلأ ، ولا يصدم إرهاب ،

(١) الحاشية ٢٢١

(٢) راجع ما كتبه Ruckert في ترجمته للحاشية ج ١ ص ٦٦ وما يليها

(٣) الحاشية ٢٠

أما من وجهة نظرنا نحن فإن قيمة هذا الأمر لا تهتما من حيث هو أحد الأسس الأولية في إقامة دعائهم صرح المجتمع العربي بقدر ما تهتما من أنه يكون عنصراً من عناصر الحياة العربية والأدب العربي ، ولذلك فقد اخترت من كتاب الأغاني قصة تنعكس فيها هذه الصور بأكملها ، تلك هي قصة قيس بن الخطيم وكيف انتقم من اغتالوا أباه وجده^(١) .

والقصائد التي يرد فيها ذكر الانتقام والأخذ بالثأر للدم المهرق تكشف القناع عن كل ما هو مستحسن ومستحسن في العربي الوثني ، فنجده من ناحية يصور لنا شجاعته وعزمه واحتقاره للموت وخوفه من العار وتبجيله الموتى واحترامه إياهم وعطفه الجدّي على ذوى قريابه ومن كانوا من لحمه ودمه ، ومن ناحية أخرى نجده يصور نفسه المضطغنة ، وقسوته وغدره ، وضراوته في تعقب القتل ، وإن القصيدة التي تحمّل لنا هذه الصفات كلها هي القصيدة المنسوبة إلى « تأبط شرّاً » ، وإن كان البعض يزعم أن صاحبها « خلف الأحمر » المنثني المعروف لقطعة الشنفرى ، والمقلد البارع الباهر للشعراء القدامى

(ينع)

مسح مهبشي

(١) لم نأ أن نذكر القصة كما ذكرها الأستاذ نيكسون لطولها ، ويمكن للقارىء العرب الرجوع إليها في الأغاني ج ٢ ص ١٦٠ أ.أ. عن عادات البدو فيمكنه مراجعة ما كتبه Burckhardt بركات في كتابه : Notes on the Bedowins and Wahabys (London 1831) Vol. I, P. 160 sqq & 329 sqq.

مع التناشليات

معهد التناشليات تأسس الدكتور ماجنوس هيرشفلد في القاهرة بعمارة ريفية رقم ٤٦ شارع المدايق تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع الاضطرابات والاورام والسرطان التناشلية والعقم عند الرجال والنساء ريميد الشباب والتخثر الميكرو يعالج بصفة خاصة سرعة الصدف طبياً لأحدث الطرق العلمية والعبارة من ١٠-١٠٠ رسمه ٤-٦ .. مدعمة : يمكن إعطاء نصائح بالرسالة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بصدان مجيد أعلى بمعرفة الرسالة البكورية المقتضية على ١٤١ سؤالا التي يمكن الحصول عليها نظير ٥ فروع